مؤرخو المغرب في عهد السلطان مولاي عبد العزيز: محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، وكتابه الحلل البهية، نموذجا (1255- 1334هـ/1839- 1916م)

إدريس بوهليلة/كلية الآداب– تطوان

القصد من هذه المساهمة المتواضعة، مقاربة موضوع مؤرخي المغرب في عهد السلطان مولاي عبد العزيز (1894 – 1908)، وذلك من خلال التعريف بنموذج من هؤلاء المؤرخين، الذي بقي – إلى حد ما – مغموراً، لم ينل الاهتمام الكافي من لدن الباحثين والمهتمين بحقل الكتابة والمعرفة التاريخية والأدبية في مغرب أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. ونعني به، المؤرخ، الأديب، والفقيه محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي. وكتابه الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية، وعدّ بعض مفاخرها غير المتناهية (1255 – 1334 / 1839 – 1916).[1]

وبالرغم من كون هذه المساهمة، ستنصب بالأساس على الجانب التعريفي الوصفي لتقديم المؤلف والكتاب لجمهور الباحثين، فإنها ستحاول الإجابة، بشكل أو بآخر، عن بعض الاستفهامات، التي تحوم حول مؤرخي المغرب في أواخر القرن الماضي، ومطلع القرن العشرين. استفهامات وتساؤلات تعود إلى التقصير في البحث والتنقيب في مثل هذه المواضيع. فليس من شك أن التراث التاريخي والأدبي المغربيين، لا زال يحتاج إلى جهود كثيرة متظافرة، وعمل دؤوب متواصل لبعثه والتعريف به في مختلف مجالات نشاطه.

من شأن هذا العرض، إذن، أن يميط اللثام عن مكون من مكونات الثقافة المغربية، ويكشف عن جانب من نشاط الحركة الثقافية والعلمية، الذي حفلت به الساحة المغربية

[1] - حققه كاتب هذه السطور، ونال به شهادة دبلوم الدراسات العليا، من جامعة محمد الخامس بالرباط، سنة 92 – 1993، شعبة التاريخ.
طبع الكتاب في جزأين بعناية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية سنة 2005.

في عهد السلطان مولاي عبد العزيز، بالرغم من الأهوال والأحداث الجسام التي تراكمت على المغرب، أثرت ـــ سلبا ـــ على مسيرة حياته الفكرية والحضارية، بل وأفقدته أعز شيء في حياة الشعوب وهو الحرية، وذلك بإخضاعه للحماية الفرنسية، في وقت قريب من هذا العهد، أي سنة 1912.

فمن هو محمد المشرفي ؟

1- سيـــرة: محمد بن محمد المشرفي:

ولد أبو عبد الله محمد بن محمد بن مصطفى الأحمر المشرفي، في بلدة إغريس بأحواز مدينة معسكر غرب الجزائر حوالي 1255هـ /1839م، حسبما يستفاد من رواية عبد الحفيظ الفاسي[1] أي بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر بتسع سنوات. هذا الاحتلال سيتمخض عنه في الحال والمآل تدهور خطير للأوضاع السياسية والاجتماعية بالجزائر، الشيء الذي أدى إلى هجرة العديد من الأفراد والجماعات إلى المغرب، ومن ضمنهم أسرة محمد المشرفي.

هاجر محمد المشرفي إلى فاس صحبة أسرته في حدود سنة 1260هـ /1844م، وكان سنه يومئذ لا يتجاوز خمس سنوات. وبهذه المدينة تربى ونشأ في أحضان أسرته، على نمط التربية الإسلامية الممزوجة بعادات وتقاليد محلية موروثة.

وأسرة المشرفي اشتهرت عند عامة الناس بالصلاح والتقوى والعلم أباً عن جد. فقد كان أبوه "عالما، فاضلا، شهما، شجاعاً".[2] فمن البداهة أن ينشأ محمد المشرفي تنشئة علمية ويتربى تربية صالحة، منذ نعومة أظفاره، تحت رعاية أسرته، التي لم تدخر وسعا في ذلك، بما يليق بمكانة الأسرة المشرفية العلمية.

فمن دون شك أنها أدخلته إلى الكتاب (المسيد) ليحفظ القرآن الكريم ويتعلم قواعد اللغة العربية وغيرها من المواد التي كانت تدرس في هذه المؤسسة، طبقا لنظام التعليم

[1] - عبد الحفيظ الفاسي، رياض الجنة، المطبعة الفاسية. 1350 / 1932، ج 2 : 7.
[2] - نفس المصدر والصفحة.

التقليدي الذي كان سائدا في هذا العصر. وبعد ذلك تدرج محمد المشرفي في المؤسسات التعليمية الأخرى بما فيها جامعة القرويين، التي ولجها عن استحقاق وجدارة لما كان في رصيده العلمي ما يؤهله لخوض غمار الدراسات العليا، فقد كان فطنا ذكيا، قوي الذاكرة، ظهرت نجابته وتفوقه الدراسي في المراحل الأولى من التعليم وهو حديث السن، يقول العربي المشرفي : "محمد بن محمد بن المصطفى الأحمر، حصل الملكة في العلوم (...) فاق أقرانه في فصاحة اللسان (...) ولا زال صغير السن كبير القدر في الفن ".[1]

درس على أبرز شيوخ العصر وأشهرهم فكرا، وفقها، وتدوينا، وتدريسا، وحركية، وفي مقدمتهم محمد بن المدني جنون والعربي المشرفي، وعمر بن سودة المري.[2] فتأثر بهم علما، ومنهجا وسلوكا.

وبعد أن أنهى دراسته بالقرويين، لم يتمكن المشرفي من الحصول على وظيف رسمي يضمن له عيشا كريما مستقرا، لذلك اتجه إلى العمل التجاري في ظروف مادية متأزمة.

متى بدأ المشرفي يزاول مهنة التجارة ؟ وكيف تعاطى للتجارة ؟ وما هي المواد التي كان يتاجر فيها ؟

كل هذه الأسئلة وغيرها، تبقى بدون جواب شاف، ما دمنا لم نعثر على وثائق وكتابات تميط اللثام عن كثير من الأسئلة تتعلق بحياة المشرفي الغامضة.

إننا لا نعرف بالضبط تاريخ بداية مزاولته للعمل التجاري، وما نعرفه هو أنه بعد انتهائه من الدراسة بفاس اشتغل بالتجارة، يقول عبد الحفيظ الفاسي في هذا الصدد: "وكان المترجم بعد طلبه العلم وتأهله بفاس اشتغل بالتجارة".[2] وما هي الظروف التي كان يمر بها قبيل تعاطيه للتجارة ؟.

---

[1] - ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول، مخطوط يوجد بالخزانة العامة بالرباط، قسم المخطوطات. تحت رقم 2659 كـ. ص. 8 .

[2] - رياض الجنة، ج 2 : 7.

من خلال نصّين للعربي المشرفي ــ وهو معاصر لمحمد المشرفي – نستشف أن محمدا المشرفي، بعد أن اجتاز المراحل الدراسية، عاش هو وأسرته في ظروف مادية صعبة، اضطر معها اللجوء إلى العمل التجاري لسد رمق عيشه وإعالة أسرته. يقول العربي المشرفي في كتابه ياقوتة النسب الوهاجة: "م يسالمه الدهر بل هو في محاربة الوقت إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا، فمد يده للتجارة لمواساة أهله".[1]

ويقول ــ أيضا ــ في ذخيرة الأواخر والأول: " ألهاه الوقت وعامله بالمقت ورماه الفقر بالحجارة ففر إلى التجارة ".[2]

بعد ذلك عيّنَ المشرفي قاضيا بقبيلة الحياينة.

ما هو تاريخ هذا التعيين؟ ومن كان سببا فيه ؟ ولماذا لم يستمر في عمله التجاري ؟

أسئلة بدون أجوبة كافية. هناك إشارة من عبد الحفيظ الفاسي إلى أن محمدا المشرفي عين قاضيا بالحياينة سنة 1310 / 1892،[3] لكنها إشارة خاطئة، والدليل على ذلك أن المشرفي ألف كتابه منهاج البشرى سنة 1305 / 1887 بعد أن عين قاضيا، وفي هذا الكتاب يشير إلى استيطانه ببلاد الحياينة،[1] مما يجعلنا نرجح أن يكون التعيين قد تم في نفس السنة التي ألف فيها كتابه المذكور.

وتعيينه في هذا المنصب له أكثر من دلالة، فهو إن دل على شيء فإنما يدل على مكانة المشرفي العلمية باعتبار أن القضاء لم يكن يتولاه إلا من كانت له دراية وحنكة بالأمور الاجتماعية وله اطلاع واسع على الكتب الفقهية.

زيادة على منصب القضاء، مارس المشرفي مهنة الإفتاء، وقد جُمعت بعض فتاويه في كتاب: مجموعة الفتاوى والأجوبة الفقهية لأحمد البوعزاوي[2]. ويبدو أن المشرفي بقي يزاول مهامه في القضاء والافتاء إلى أن توفي بفاس سنة 1334 هـ/ 1916م.

[1] - ياقوتة النسب الوهاجة، مخطوط، يوجد بالخزانة العامة بالرباط، قسم الوثائق والمخطوطات تحت رقم 1534 د. ورقة : 48 أ.

[2] - ذخيرة الأواخر والأول. مخ: ص: 8.

[3] - رياض الجنة، ج 2: 7.

كيف كان تكوينه العلمي ؟

أ- تكوينه الثقافي والعلمي:

درس محمد المشرفي بفاس، وتكون تكوينا علميا على طريقة عصره، فكانت الحصيلة بروزه كشخصية مثقفة تجمع عدة تخصصات، سأقتصر هنا على تخصصين اثنين هما:

أولاً: الثقافة التاريخية:

لم تكن مادة التاريخ بين المواد التي تدرس في جامعة القرويين، وإنما كان الطلبة ينكبون على مطالعة الكتب التاريخية بحسب مجهوداتهم واجتهاداتهم الخاصة.

ويظهر أن المشرفي كان مجدّاً في مطالعة الكتب التاريخية لشغفه بعلم التاريخ وإدراكه لأهميته العلمية. هذا ما يتجلى واضحا من خلال كتابيه "الحلل البهية" و"منهاج البشرى"[1] فالتاريخ بالنسبة له: "من أجلِّ العلوم قدرا (...) يكسب صاحبه النباهة حتى يفوق أمثاله"[2] وبواسطته تستنير الفكر والألباب، وتُعلم حوادث الأزمنة والأحقاب.[3]

لقد كان المشرفي بحق، مطلعا على كتب تاريخية تتعلق بتاريخ الشرق والغرب الإسلاميين، فأي رأي أبداه، أو فكرة اقترحها، أو موقفا اتخذه، أو نصيحة أسداها، إلا ورجع بذاكرته إلى الروايات التاريخية لتبرير وتعليل ما رآه صائبا، مما يدل على سعة اطلاعه وقوة ذاكرته، وميوله إلى حقل التاريخ.

فكان تكوينه العلمي في الحقل المعرفي التاريخي، تكوينا رصينا، استحق بذلك، نعته وتسميته بالمؤرخ، بحسب منطق عصره.

ثانيا: الثقافة السياسية:

لم يكن المشرفي منعزلا عن الأحداث السياسية التي كانت تستجد من حين لآخر على الساحة المغربية، فقد عايش كل التطورات والأحداث التي مر بها المغرب ابتداء من

---

[1] - منهاج البشرى وسعادة الدنيا والأخرى. مخطوط مصور على الميكروفيلم، يوجد بالخزانة العامة بالرباط، قسم الوثائق والمخطوطات تحت رقم : 1638. ورقة 38 ب، 59 ب، 60 أ.

[2] - الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية دار أبي رقراق للطباعة والنشر الطبعة الأولى 2005 ج 1: 121.

[3] - نفس المصدر والصفحة.

عهد السلطان عبد الرحمان إلى السلطان مولاي عبد العزيز، لم يعايش الأحداث بوجوده، وإنما عايشها بوجوده وفكره وقلمه، فسجل كل ما لفت نظره أو أثر على نفسيته، و لم يتوان عن تقديم الاقتراحات السياسية التي كان يراها مناسبة لحل ما استعصى حله، كما لم يفته إبداء مواقفه السياسية بكل جرأة وحماس الرجل السياسي الغيور على بلده وهويته الحضارية، ويتجلى لنا ذلك واضحا من خلال كتابيه: "الحلل البهية" و"منهاج البشرى".

إن اهتماماته الفقهية والسياسية، جعلت منه أحد العلماء البارزين وأحد موظفي المخزن في القضاء، الأمر الذي جعله على ارتباط وثيق بالسلطة السياسية، فكان لهذا السبب وبحكم ثقافته وهمومه شديد الصلة بالفكر السياسي، والأحداث السياسية، شارك فيهما بوجوده وفكره وقلمه.

2 – أسباب تأليف الكتاب ومضامينه الأساسية:

كان التاريخ والأدب مادتين متلازمتين متكاملتين، عبر عصور التاريخ الإسلامي، وظل هذا الترابط والالتحام قائما في المغرب إلى مطلع القرن العشرين. فلا يوجد كتاب في التاريخ يخلو من نصوص أدبية نثرية أو شعرية، أو كتاب في الأدب يخلو من الأخبار التاريخية. هذا يدل على التكامل بين التاريخ والأدب.

وقد كان من المألوف في الساحة الفكرية المغربية في القرن19 أن يضطلع أحد المؤرخين إلى شرح قصيدة شعرية تتناول تاريخ الأسر الحاكمة بالمغرب، خاصة إذا كانت هذه القصيدة قد نالت شهرة واسعة بين أوساط المثقفين إما لطابعها الفني أو لمضمونها التاريخي أو لهما معا. وهذا حال كتاب الحلل البهية

إن قصيدة الغالي بن سليمان[1] في تاريخ ملوك الدولة العلوية،[1] من القصائد التي حظيت بالشرح من قبل محمد المشرفي الذي سمى شرحه هذا بـــ "الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية، وعد بعض مفاخرها غير المتناهية".

[1] - هو أبو محمد الغالي بن المكي بن سليمان، شاعر أديب، رحالة، وله ولوع بفن الموسيقى. كان أبرز كتاب السلطان مولاي الحسن، فصحبه في حركاته المتعددة سواء في شمال المغرب أو جنوبه. توفي بمراكش سنة 1899.

فما هي أسباب هذا التأليف / الشرح ؟

أ – ظروف ودواعي تأليف الكتاب:

ألف المشرفي كتابه الحلل البهية في ظرفين تاريخيين مختلفين على جميع المستويات.

– الظرف الأول في عهد السلطان مولاي الحسن، وبالذات سنة 1310 هـ/ 1893م ففيه شرح القصيدة، الذي يعتبر الأصل الأول للكتاب.

تميز هذا الظرف بظهور ملامح نهضوية سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية، لما وفر لها مولاي الحسن من وسائل الحياة والنمو الشيء الذي شجع العلماء على مضاعفة مجهوداتهم في التأليف.

يقول صاحب مؤرخو الشرفاء: " فإن عهد مولاي الحسن كان بالنسبة للآداب الإسلامية عهد نهضة جديدة "[2]. ففيه ساد الهدوء والأمن حيث تعددت مظاهر اليقظة الحضارية، ونشطت الهمم للتفكير في إصلاح الأجهزة الحكومية والمنشآت الإدارية والاجتماعية، والمؤسسة العسكرية. وأخذ المثقفون الواعون يهتمون بمقاصد البعثات الدبلوماسية.[3]

أما الظرف الثاني، فهو في عهد السلطان مولاي عبد العزيز، وبالتحديد سنة 1321هـ/1903م. ففيه أعاد المشرفي صياغة كتابه (الشرح) فأدخل عليه تعديلا، وأضاف له تذييلا هاما جمع فيه الأحداث التاريخية التي عاصرها عن كثب. وكان يريد أن يسردها إلى السنة التي كان يعيش فيها وهي سنة 1903م كما يُستشف من قوله: "ثم رأيت أن نصل ما حدث بعد إلى سنة إحدى وعشرين بعد ما كنت قيدته".[4] إلا أن تسجيله

انظر : الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية، محمد المشرفي، ج 1 : 86، 139 – 148.

[1] - القصيدة بائية القافية. من البحر الطويل. تشتمل على ست وستين (66) بيتا، أنشأها سنة 1310 هـ / 1892م.

انظر نصها في المصدر السابق، ج 1: 87 – 89.

[2] - ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص : 252.

[3] - نفس المرجع والصفحة.

[4] - الحلل البهية: ج2: 210.

للأحداث بالكتاب تقف بشكل غير طبيعي عند سنة 1319 هـ/ 1902م. فلعل طارئا ثنى المشرفي عن إتمام كتابه.

إن هذا الظرف التاريخي الثاني، مغاير للأول، إذ عرف فيه المغرب تراجعا خطيرا على جميع المستويات نتج عنه فقدان وحدته الترابية على إثر الاحتلال الفرنسي لواحات توات، والانفتاح على أوربا بشكل مثير، ثم الشروع في تطبيق البرامج والمخططات الإصلاحية المفروضة.

يلخص المشرفي أسباب تأليفه الحلل البهية في أربعة أسباب رئيسية، وهي حسب ترتيبه لها :

– **أولاً: إعجابه بقصيدة الغالي بن سليمان:** أعجب المشرفي كثيرا بقصيدة ابن سليمان التي تتناول تاريخ الدولة العلوية العام، لما اشتملت عليه من الجزالة والفصاحة والطلاوة وحسن الترتيب[1] فأبى إلا أن يتحفها بشرح مبسط، يعالج فيه تاريخ الدولة العلوية بصفة خاصة، وتاريخ المغرب عامة.

– **ثانياً: وفاؤه بالوعد:** يذكر المشرفي بأنه من أسباب تأليفه هذا الكتاب/الشرح رغبته في الوفاء بالوعد الذي قطعه على نفسه. فمن هو هذا الشخص المواعد ؟

إننا نرجح أن يكون هذا الشخص هو السلطان مولاي الحسن. لأن هذا الأخير عمل كل ما في وسعه من أجل احتواء النخبة المثقفة، ومن ضمنها نخبة من المؤرخين الذين كانوا بدورهم يتقربون إليه بمؤلفاتهم التاريخية مدحا وإطراء، فينالون كجزاء عن ذلك مبالغ مالية أو جوائز عينية، وكمثال على ذلك أبو العباس أحمد بن الحاج السلمي[2] وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم السباعي.[3] ولعل محمدا المشرفي يندرج ضمن هذه النخبة مع فارق وهو

[1] - الحلل البهية، ج 1 : 117.
[2] - الذي ألف كتاب: الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن. وهو كتاب ما زال مخطوطا في عدة مجلدات.
انظر: ابن زيدان: الدرر الفاخرة: 106، المنوني المصادر العربية ج 2 : 95 – 96 .
[3] - الذي ألف كتاب: البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن. وهو كتاب ما زال مخطوطا.

أنه إذا كان النموذجان السابقان قد ألفا كتابيهما بأمر سلطاني، فإن المشرفي شرع في تأليف كتابه بمحض إرادته. لكن يبدو في نفس الوقت، أنه أخبر السلطان بهذا المشروع بل ووعده به. فالوعد، إذن، لم يسبقه أمر أو طلب سلطاني اللهم ذلك الطلب بالتعجيل بهذا المشروع. ولكي يفي بوعده، وينال الحظوة والجزاء، فإن المشرفي اغتنم فرصة وجود السلطان مولاي الحسن بفاس في أواخر سنة 1310 هـ/ 1893م. فقدم كتابه هدية له، فجزاه السلطان عن ذلك خير الجزاء. يقول بناني عبد القادر: " قدمه هدية للسلطان المقدس مولانا الحسن ـــ رحمه الله ـــ فأجازه عليه إجازة سنية". [1]

– **ثالثاً: اشتغاله بعلم التاريخ** : كان المشرفي شغوفا بعلم التاريخ أينما حل وارتحل. وما ذلك إلا لوعيه بأهمية وجدوى التاريخ في معرفة ماضي الإنسانية وحاضرها من جهة وباعتباره مصدرا للعظة والاعتبار من جهة أخرى.

– **رابعاً: إقتداؤه بالعلماء والمؤرخين**: رغب المشرفي في تخليد اسمه في التاريخ، اقتداء بما فعله العلماء والمؤرخون عبر التاريخ بقوله: "فإن الداعي الرابع هو محبة احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء وقفاها الحكماء، وأن يبقى للعالم ذكرا محمودا وعلما منظوما عتيدا". [2]

هذه الأسباب ذكرها المشرفي في بداية شرحه للقصيدة، أي في بداية تأليفه للكتاب، فهي بهذا وبروح معانيها ترتبط بالشرح، وليس بالتذييل/التكملة، الذي يعد القسم الثاني من الكتاب، أضافه المشرفي إلى الشرح في فترة لاحقة، بعد مرور 11 سنة، أي في العهد العزيزي، وبالذات سنة 1321 هـ/ 1903م، تغيرت أثناءها وضعية المغرب عامة.

ولعل من الأسباب الداعية لهذه الإضافة / الذيل، هو رغبته في إفادة المثقفين، والأعيان وعامة الشعب، بما استجد على الخريطة التاريخية والسياسية بالمغرب، من أواخر عهد السلطان مولاي الحسن إلى السنة التي كان يعيش فيها في ظل حكم السلطان مولاي عبد العزيز.

---

[1] - بناني عبد القادر: تلخيص ما عليه المعول، مخطوط يوجد بالخزانة الحسنية تحت رقم 12385 ز: 88 أ.

[2] - الحلل البهية ، ج 1: 126.

كما أن الأزمة التي عصفت بالمغرب، في هذه الأثناء، كانت وازعا له على تسجيلها في مذكراته، ومن ثم نقلها في كتابه المذكور. فالظاهر أن المشرفي لم يستطع أن يخفي أو يضمر ما كان يخامر نفسه من مرارة وأسى وحسرة على الواقع المصاب. وهذا ما يتجلى واضحا في جميع مراحل القسم الثاني من كتابه أي الذيل أو التكملة.

وبهذه الإضافة تجاوز المشرفي التصميم الذي وضعه في أول الأمر.

ويمكن تقسيم موضوعات الكتاب إلى ثلاثة محاور:

1. الدول المتعاقبة على المغرب قبل الدولة العلوية.
2. الدولة العلوية من النشأة إلى عهد الحسن الأول.
3. عهد السلطان مولاي عبد العزيز.

تناول المشرفي الدول والأسر التي حكمت المغرب قبل الدولة العلوية بالترتيب أولا بأول، بشكل موجز، وقد أوردها عرضا أثناء تفصيله لموضوع تكوين الدولة العلوية، بشرحه لمضمون القصيدة لغويا واصطلاحيا.

وقد ركز على أهم الأحداث والوقائع، مخصصا حديثه عن تاريخ تولية الحكام وأعمالهم ووفاقم. بدءا من دولة الأدارسة إلى دولة السعديين .

وهكذا يمكن استخلاص من عروضه النقط التالية:

- تولية وبيعة الحكام.
- عملية الخلع.
- الحروب والفتوحات.
- وفاة الحكام.
- ذكر مناقبهم.
- المنجزات العمرانية والاجتماعية.
- انقراض الدولة وأسبابها.

ولم يفته في هذا المجال الإتيان ببعض الحكايات والروايات التاريخية التي تعضد رأيه، أو تنحو منحى التيار الجديد القائم، باعتبار أن تلك الروايات تدخل في إطار العبر. وهي بذلك توظف إما للمدح أو القدح.

وحاول سرد جميع الأمراء، والسلاطين والحكام، الذين تناوبوا على حكم المغرب، إلا استثناء.

ثم عاد المؤلف إلى معالجة تاريخ ملوك الدولة العلوية من النشأة إلى أواخر عهد السلطان مولاي الحسن الأول. وكان هذا هو القصد من وراء تأليفه كتابه. بل إن هدفه الأسمى هو تأريخ حياة السلطان مولاي الحسن، الذي يعد ــ في نظره ــ واسطة عقد الدولة العلوية، التي هي أحق الدول بالمدح والإطراء، وذلك "لما اكتسبته من المحامد والفضائل والمناقب الفاخرة والفواضل والسجايا المحمودة والسيرة المرضية والحلم والإناءة والأخلاق التي لا تعادلهم في حسنها دولة"[1] حسب قوله ويقول أيضا: "إنه بسبب ما ثبت لهذه الدولة الفخيمة من المفاخر المكارم، ومن أجله جمعت ملوكها في هذه القصيدة وحسنتهم بمحاسن مولانا الحسن خلد الله ملكه، إذ هو واسطة عقدهم (...) وحيث كان هو المقصود أمده الله بنصره مع أبائه الكرام ...".[2]

ولتبيان مشروعية أطروحته ومقاصده، ساق لنا المشرفي موجز تاريخ الدول العربية الإسلامية بالمشرق في العصر الوسيط، مركزا على مراحل سقوط هذه الدول، مبينا قبائح وعيث وفساد الملوك والحكام المتعاقبين على الحكم.

ثم عرج على تاريخ الدول بالمغرب، فذكر نقائص ومفاسد الأمراء والسلاطين وما فعلوه من أفعال رذيلة، مقتصرا على فترات الاضطراب والانهيار، في تاريخ هذه الدول بدءا من الأدارسة إلى السعديين.

---

[1] - الحلل البهية، ج 1: 180 – 181.
[2] - الحلل البهية، ج 1: 185.

ثم انطلق من جديد في شرح أبيات القصيدة المتعلقة بملوك الدولة العلوية، فاستقصى أخبار جميع سلاطينهم، وأجدادهم، باستثناء السلاطين الذين لم يتم لهم الاستقرار في الحكم، خاصة أولئك الذين أتوا بعد مولاي عبد الله.

يقول في هذا الصدد: "وحيث كان هو المقصود أمده الله بنصره (أي مولاي الحسن) مع أبائه الكرام المختصين بالملك قبله مع آثارهم الفخيمة وسيرتهم الحميدة، اقتصرت عليهم دون من عداهم من القائمين الذين لم يتم لهم أمر من أقاربهم (...) لقلة جدواهم وعدم مزاياهم. و لم يختص الناظم بهذا، فقد قال صاحب الجيش أيضا: كل من قام بعد بيعة مولاي عبد الله إنما هو ثائر لا إمامة له".[1]

وقد أفاض في ترجمة ملوك الدولة العلوية إلى عهده، وعد مفاخرهم ومنجزاتهم، وهم على التوالي :

المولى محمد	المولى سليمان
المولى الرشيد	المولى عبد الرحمان
المولى إسماعيل	المولى محمد بن عبد الرحمان
المولى عبد الله	المولى الحسن.
المولى محمد بن عبد الله	

أما الذيل أو التكملة، وهي تتعلق بأواخر حياة السلطان مولاي الحسن، وعهد حكم السلطان مولاي عبد العزيز، فقد أفاض وأفاد في تسجيل الأحداث التي عاصرها وشاهدها عن كثب، بموضوعية وجرأة حادة.

تناول جملة من الموضوعات منها: بيعة السلطان مولاي عبد العزيز، واستبداد الحاجب أحمد بن موسى وتعيين وزراء حكومته، وملابسات سفارة عبد الكريم بريشة إلى

[1] - نفس المصدر والصفحة.

إسبانيا، والاستيلاء الفرنسي على واحات توات المغربية، والتغييرات التي مست الحكومة، في أعقاب وفاة الصدر الأعظم أحمد بن موسى، وفي هذا الصدد لم يفته إطلاعنا على أسماء وزراء الحكومة الجديدة، وما كان بينهم من المشاحنة والعداء والحقد، وكثيرا ما كان يبدي رأيه فيهم وكمثال على ذلك، موقفه من طلب وزير المالية عبد السلام موخ التازي الرباطي الإقالة من منصبه، إذ يقول في هذا الصدد: " لما رأى [عبد السلام الرباطي] ما صار إليه الأمر بعد موت الوزير من ارتكاب المجون، والموافق عليه ناصح ملحوظ، والناكر غاش في زوايا الإهمال والإهانة مسجون، طلب من السلطان الإقالة من توليته معتذرا بذهابه لبيت الله الحرام، فأقاله لذلك السبب الظاهر وذهب بسلام. وهو من كمال عقله وديانته وسديد رأيه ومروءته ونتيجة صدقه وأمانته "[1]. وما هي المنهجية التي اتبعها في تأليفه الكتاب ؟

ب – طريقتـــه في التأليـــف :

أثناء شرحه للقصيدة، اتبع المشرفي منهجية كانت معروفة لدى شُراح القصائد في عصره، هذه المنهجية خضعت لعمليتين أساسيتين :

الأولى هي الشرح اللغوي للكلمات الصعبة أو المبهمة في البيت الشعري، الذي يُراد شرحه، وكذلك الشأن بالنسبة للمصطلحات الحضارية، وعادة ما يكون هذا الشرح اللغوي موجزا، لأن القصد منه هو الشرح الاصطلاحي المعنوي. وقد اعتمد المشرفي في هذه العملية على مخزونه الأدبي والديني.

والعملية **الثانية** هي الشرح الاصطلاحي التاريخي، وهو الشرح الأساس في العمليتين، وعليه يقوم عمل المشرفي في الكتاب. يقوم أثناءه بتبسيط ترجمة السلطان المنوه به بتفصيل الأحداث التي وقعت في عهده مع التركيز على أهم منجزاته وأعماله منذ التولية إلى الوفاة، بحسب ما توفرت لديه من مادة معرفية تاريخية استقاها من مصادر ووثائق مختلفة.

[1] - الحلل البهية: ج 2: 245.

وفي عمله اتبع ترتيب القصيدة شكلا ومضمونا وهو ترتيب خاضع للمنهج الحولي الذي يعتمد على تدوين الأحداث المتتالية حسب تعاقبها في الزمن.

ونفس الشيء بالنسبة للتذييل الذي ألحقه المشرفي بالكتاب في وقت لاحق، بعد مرور إحدى عشرة سنة، فقد سرد فيه الأحداث حسب الترتيب الكرونولوجي العام.

وتميز أسلوبه في الكتاب بالدقة في التعبير، وتبسيط الفكرة المراد تبليغها باستعمال كلمات ومصطلحات سهلة الفهم والإدراك.

وقد اعتمد في تدوين الأحداث على كتب كثيرة ومتنوعة الاختصاص، مثل كتب الفقه، والأدب، والشعر، واللغة، والحديث، والتراجم، والأنساب، والرحلات، والتاريخ العام. هذا فضلا عن المصادر الشفوية والمشاهدة والمعاصرة للأحداث.

أين تكمن أهمية هذا الكتاب؟

من أهمية هذا التأليف، أن المشرفي حاول أن يُلمَّ ويستقصي تاريخ المغرب العام، ابتداءً من الدولة الإدريسية إلى صدر الدولة العزيزية العلوية. وإذا كان قد أوجز تاريخ الدول المتعاقبة على المغرب قبل الدولة العلوية مع التركيز على أهم الأحداث، فإنه تناول تاريخ الدولة العلوية بإسهاب وتفصيل معتمدا في ذلك على مصادر متنوعة.

ومثل هذا النوع من التأليف بما احتوى عليه من مادة معرفية تاريخية ومنهجية صارمة، كان قليل الوجود، إلى حد العدم، في عصره.

وكل هذا يضفي على الكتاب أهمية تاريخية وقيمة معرفية قلما نجدها في كتب تاريخية أخرى.

لائحة المصـــادر والمـــراجع

1. أبو حامد العربي المشرفي، ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول. مخطوط يوجد بالخزانة العامة بالرباط - قسم المخطوطات، رقم 2659 ك.

2. أبو حامد العربي المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة، مخطوط يوجد بالخزانة العامة بالرباط ـــ قسم الوثائق والمخطوطات رقم 1534 د.

3. عبد الحفيظ الفاسي، رياض الجنة، المطبعة الفاسية، 1350 هـ / 1932م.

4. عبد القادر بناني، تلخيص ما عليه المعول، مخطوط يوجد في الخزانة الحسنية، رقم 12385.

5. ليفي بروفنصال، مورخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1977.

6. محمد المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية، وعدّ بعض مفاخرها غير المتناهية، تحقيق ودراسة إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الطبعة الأولى 2005، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط - المغرب.

7. محمد المشرفي، منهاج البشرى وسعادة الدنيا والأخرى، مخطوط يوجد بالخزانة العامة بالرباط ـــ قسم الوثائق والمخطوطات، ميكروفيلم رقم 1638.